اكتساب اللغة: دراسة مقارنة بين النظرية السلوكية والنظرية الفطرية

Language Acquisition: A Comparative Study Between the Behaviorist Theory and The Nativist Theory

د. الحسن عبد النوري[1]
المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين الدار البيضاء - سطات، المملكة المغربية
eabedenouri@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/01/10 تاريخ القبول: 2022/02/10 تاريخ النشر: 2022/03/01

ملخص: تهدف هذه الدراسة إلى معرفة آراء، وتفسيرات النظرية السلوكية، والنظرية الفطرية حول اكتساب اللغة، وبعض الانتقادات الموجهة لهما. حيث اعتبرت السلوكية اللغة سلوكا اجتماعيا بسيطا، شأنه شأن باقي السلوكيات الإنسانية الأخرى. ويقتصر اكتسابها على الربط الميكانيكي بين المثير، والاستجابة، والحضور القوي للبيئة أو التجربة، ولمبادئ التكرار، والتقليد، والمحاولة والخطأ، والتدريب، والتعزيز (المادي والمعنوي) ... بينما تناقض النظرية الفطرية سابقتها، وتغوص في أعماق اللغة. وتعتبرها خاصية بيولوجية بشرية، لتوافر كل إنسان على قدرة فطرية (جهاز اكتساب اللغة)؛ والتي تسمح له باستيعاب النظام اللغوي المعقد في فترة وجيزة رغم فقر المنبه أو التجربة، واستخدامه بمرونة، وإبداع، وبناء حدسه اللغوي...

كلمات مفتاحية: اكتساب اللغة - النظرية السلوكية - النظرية الفطرية - جهاز اكتساب اللغة .

Abstract:

This study aims to know the behavioral and the nativist theory views and interpretations about language acquisition, and some criticisms. Behaviorism considered language as a simple social behavior, like all other human behaviors. its acquisition is limited to link stimulus and response, and the presence of several principles, such as: repetition, imitation, trial and error, training and reinforcement …

While, the nativism considered language a human biological property, because he is equipped with a language acquisition device; which allows him to acquire the complex language system in a short period, despite the poverty of experience, and builds language competence…

Keywords: Language Acquisition - The Behaviorist Theory - The Nativist Theory - Language Acquisition Device.

[1]- **المؤلف المرسل: الحسن عبد النوري**: eabedenouri@gmail.com

1-مقدمة:

اختلفت آراء وتصورات علماء النفس، وعلماء اللغة حول تفسير اكتساب اللغة؛ نظرا لتباين قناعاتهم، ومناهجهم، وخلفياتهم الفلسفية. واحتدم النقاش حول هذا الموضوع بصورة واضحة خلال النصف الثاني من القرن الماضي، وخاصة بعد ظهور النظرية التوليدية التحويلية على يد الأمريكي نوام تشومسكي. وبعد استقراء العديد من الأدبيات التي تناولت موضوع اكتساب اللغة، خلصنا إلى تعدد النظريات والاتجاهات التي حاولت تفسيره، ومن أهمها: النظرية السلوكية، والنظرية الفطرية، من دون تبخيس آراء وأفكار النظريات الأخرى. ونأمل أن تساعد هذه الدراسة القارئ على تكوين فهم شامل وعميق للموضوع، والتعرف عن البراهين النظرية والتجريبية التي اعتمدت عليها كل نظرية على حدة (النظرية السلوكية، والنظرية الفطرية)؛ لتفسير اكتساب اللغة.

2-تعريف اللغة وخصائصها:

2-1-تعريف اللغة:

انفتح الباحثون في اللغة واكتسابها، على مجموعة من العلوم، وخاصة علم الوراثة، وعلم الأعصاب، وعلم الحفريات، والأنثروبولوجيا، وعلم الكمبيوتر، قصد تحديدها والكشف عن طبيعتها بصورة متماسكة قدر الإمكان. وقدمت لها تعاريف مختلفة باختلاف السياقات والتخصصات، إذ اعتبرها ابن جني "أصواتا يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"[1]، وعرفها فيرناندیز وكيرنز " بأنها نظام التواصل الأساسي لدى النوع البشري، هدفه إيصال الأفكار، والعواطف، والرغبات عن طريق الكلام".[2] ونجد التعريف ذاته، ولكن بشكل موسع عند بوصمان "Bussmaann" في

معجمه "Routledge Dictionary of Language and Linguistics"، حيث نظر إليها بأنها وسيلة للتعبير عن الأفكار، والمفاهيم، وإيصال المعارف، والمعلومات، وتبادلها. وهي شكل من أشكال التعبير الإنساني، والذي يختلف عن جميع وسائل التواصل الأخرى الممكنة، مثل التواصل الحيواني، والتواصل الاصطناعي....[3] وعموما، لا يمكن للباحث أن يوفق في تعريف اللغة دون الإحاطة بوظائفها الثلاث الرئيسة، إذ تساعد المرء على التواصل مع الأشخاص الآخرين، وتيسر عملية تفكيره، وتخدمها بتوفير نظام من الأصوات، والرموز، والقواعد، ثم تمكنه من استدعاء المعطيات من الذاكرة.

2-2- خصائص اللغة الإنسانية:

تحدد اللغة البشرية مجموعة من الخصائص، والسمات، بعضها خاص بها، وبعضها مشترك مع وسائل التواصل الأخرى جميعها. ومن هذه الخصائص ما يلي[4]:

-**الاعتباطية:** هي من أهم خصائص اللغة الإنسانية كما بين دوسوسير"Dessusure"، وتعني أن طبيعة العلاقة التي تربط بين الدال، والمدلول علاقة اعتباطية. وتظهر أهميتها في إضفاء المرونة، والتكيف على اللغة البشرية.

- **الخطية**: يعتبر اللساني دوسوسير هو من تحدث عن هذه الخاصية، ويقصد بها التعاقب الزمني للعناصر اللغوية. حيث تمتد لتشكل تعابير لغوية، مثلا تتوالى الأصوات لبناء الكلمات، والكلمات لتشكيل الجمل، والجمل لتشكيل الفقرات، والنصوص، مع ضرورة احترام الضوابط النحوية، والصرفية، والتداولية لكل لغة على حدة.

- **صفة التمايز**: تعني أن متكلم اللغة يميز بين العناصر اللغوية تمييزا واضحا، سواء على مستوى النطق أو السمع. وبالرغم من اندماج، وتعاقب الكلمات، فإن المتكلم يدرك الحدود، ويميز بين العناصر اللغوية. وترتبط هذه الخاصية فقط باللغة الإنسانية دون غيرها من وسائل التواصل الأخرى، لكونها تعتمد على الخاصية السابقة (الخطية).

- **الإبداعية:** تعني قدرة المتكلم على إنتاج، وفهم عدد غير متناه من الجمل، والعبارات اللغوية، ولهذا توصف اللغة بأنها خلاقة مبدعة[5]. وليس المقصود بالإبداعية إبداع الشخص في كتابة الشعر، والرواية...، بل "المقصود بها لغته الاعتيادية في إيصال أفكاره، وأحاسيسه إلى شخص آخر بتعابير لغوية مختلفة دائما"[6].

- **الثنائية**: تفيد بأن اللغة تتكون من مستوين في آن واحد، مستوى مركزي يتضمن الوحدات ذات المعنى كالمقاطع، والكلمات، والجمل، ومستوى ثانوي يكمن في الوحدات التي لا تدل على المعنى، كالأصوات.

- **الإزاحة:** هي خاصية تمكن متكلمي اللغة من التعبير عن الأشياء، والأحداث المنفصلة عن سياقها التداولي الخاص.

إضافة إلى الخصائص السابقة، يضيف جاكندوف "Jackendoff" خصائص أخرى، إيمانا منه بفكرة عمومة اللغة، وتشكيلها لنسيج واحد في اللغات كلها. وهذه الخصائص هي[7]:

- **التعميم في بناء اللغات:** أي يوحد اللغات الإنسانية خصائص ثابتة، سواء في الأصوات أو في الصرف أو في التركيب أو في المعجم أو في التداولية....

- **توقيت اكتساب الطفل للغة**: يفترض جاكندوف أن أطفال العالم يكتسبون لغتهم في مرحلة زمنية واحدة، لتماثل طبيعة بنائهم البيولوجي، ومرورهم بمراحل النمو نفسها؛ مما يدل على أن الدماغ البشري يحوي ملكة/ قدرة خاصة بهذا العمل.

- توافر اللغة البشرية على قدرات خاصة لا توجد في غيرها من لغات المخلوقات الأخرى، سواء من حيث عدد مفرداتها، وطبيعة أصواتها أو من حيث تعقيدها الصرفي، والنحوي...

3 – تفسيرات النظرية السلوكية، والنظرية الفطرية لاكتساب للغة:

شهد منتصف القرن الماضي نقاشا كبيرا حول كيفية اكتساب الطفل للغة، واختلفت أفكار، وتفسيرات الباحثين المهتمين بهذا الموضوع، خاصة في علم النفس، وفي السيكو لسانيات، وفي اللسانيات العصبية.... ومن أهمها أفكار، وتفسيرات النظرية السلوكية، والنظرية الفطرية.

3-1- النظرية السلوكية، وتفسيرها لاكتساب اللغة:

3-1-1- النظرية السلوكية "The Behaviorist Theory": معطيات عامة.

تعود بوادر ظهور النظرية السلوكية إلى الروسي بافلوف "Pavlov"، إضافة إلى الأمريكيين واطسون"Watson"، وسكينر"Skinner"... ونظرت إلى اللغة البشرية كسلوك قابل للقياس والملاحظة، وعادة اجتماعية مثلها مثل سائر العادات الاجتماعية الأخرى، وتكتسب/ تتعلم عن طريق التكرار، والمحاولة والخطأ، والتعزيز...؛ إنه الأسلوب الذي يتعلم به الإنسان أي سلوك معين/ السلوك اللغوي.

ولهذا رفض أصحاب هذا الاتجاه البحث في العمليات الذهنية والمفاهيم المتصلة بها، من قبيل العقل والفكر... و"اعتبروا التجربة هي المصدر الأساسي لبلوغ المعرفة في كافة جوانبها، وتبني المنهج التجريبي بغية الوصول إلى نتائج علمية إسوة بنتائج العلوم الحقة، بعدما كان علم النفس يستند إلى مجموعة من المناهج، منها منهج الاستبطان، والذي يشك رواد هذا الاتجاه في أهميته وقيمته".[8]

ويعد سكينر"Skinner" من أهم الباحثين السلوكيين الذين تناولوا مفهوم اكتساب اللغة بالدراسة والتحليل في كتابه السلوك اللغوي"Verbal Behavior" سنة 1957. وذهب هذا الباحث إلى أن اللغة سلوك مثل أي سلوك آخر، ولا فرق بين سلوك قيادة السيارة أو السباحة في الشاطئ، وسلوك تعلم اللغة؛ مما يبرر قول منظري السلوكية أن اللغة شيء يفعله الطفل، وليس شيء يملكه (الاتجاه الفطري). ويبقى الطفل سلبيا (التلقي) خلال عملية التعلم، لأنه ولد وذهنه صفحة بيضاء خالية من اللغة. ويستعملها عندما تمتلئ تلك الصفحة بالخبرات التي توفرها له بيئته اللغوية، وهو فعال فقط في تقليد الأشكال اللغوية [9].

2-1-3-تفسير النظرية السلوكية لاكتساب للغة:

تنظر النظرية السلوكية إلى اللغة نظرة سطحية، ويقتصر اكتسابها/ تعلمها على الربط الميكانيكي بين المثير والاستجابة، ويتم ترسيخه عن طريق التدريب، والثواب، والتعزيز (المادي والمعنوي) من خلال البيئة الاجتماعية، واللغوية [10]. ويتضح الدور الأساسي للبيئة الاجتماعية، واللغوية في اكتساب اللغة فيما يلي[11]:

- تتأثر لغة الطفل بمحيطه الاجتماعي، والثقافي؛ حيث ينقل له نظاما من القواعد الخاصة بعشيرته.

- يرتبط محيط الطفل اللغوي ارتباطا وثيقا بعوامل غيرلغوية، وذات صلة بالتطور الاجتماعي والانفعالي لعشيرته اللغوية؛ والذي يظهر بوضوح من خلال اضطرابات التطور اللفظي. بحيث كلما كان المحيط اللغوي مناسبا يكون الاكتساب بشكل سريع وفعال، والعكس صحيح.

- ينمو الطفل في بيئة طبيعية واجتماعية لا تنفصل اللغة عنها؛ لأن اللغة تعود في مظاهرها الدلالية إلى البيئة بالضرورة.

ويتضح مما سبق أن اللغة تكتسب من خلال التكرار والتعزيز، ومن خلال البيئة الاجتماعية والبيئة اللغوية. ويرى السلوكيون أن الطفل يمر في اكتسابه اللغوي عبر المراحل الآتية:

- **المرحلة الفونولوجية:** حيث تتحول أصوات الطفل من شكلها الطبيعي والعفوي إلى أصوات لغوية وفونيمات تحترم سمات أصوات بيئته اللغوية، ويتدخل الراشدون لتعزيز وتصويب السمات الصوتية الصحيحة دون السمات الخاطئة.

- **المرحلة النحوية والصرفية:** يعمل والدا الطفل على تدعيم القواعد الصرفية، والنحوية السليمة؛ مما يسهم في بناء واكتساب لغة صحيحة صرفيا ونحويا.

- **المرحلة الدلالية:** يكتسب الطفل معاني الكلمات اعتمادا على تقنية الربط الصحيح بين الدال والمدلول داخل بيئة لغوية ما.

ويعد مبدأ التعميم أساسيا في عملية اكتساب اللغة لدى الاتجاه السلوكي، سواء تعلق الأمر بتعميم الدلالات والمعاني، أو تعميم الخصائص الصرفية والوظائف النحوية.

يعتمد الطفل وفق النظرية السلوكية في اكتسابه للغة على مجموعة من المبادئ، أهمها مبدأ التقليد. حيث يقلد الأصوات والمقاطع والكلمات الصادرة عن أفراد بيئته اللغوية، قصد التعبير عن مشاعره ورغباته وحاجاته، والطموح لكي يصبح مثلهم. وتتوقف عملية التقليد على طبيعة ونوعية التعزيز الذي يستقبله الطفل من محيطه، و"تبدأ في نهاية السنة الأولى من عمره، لتتحول من عملية عفوية لا إرادية إلى عملية مقصودة يصاحبها الفهم، بعد أن كان هذا الأخير غير واضح تماما"[12]. وعملية التقليد لا قيمة لها دون اقترانها بمبدأ التعزيز، إذ يعمل المحيطون بالطفل على تعزيزه ومكافأته بإظهار سلوكيات إيجابية، مثل الابتسامة، وإصدار أصوات تدل على الفرح والسرور، والتقبيل، والاحتضان...[13]. وذكر سكينر أن تعزيز الطفل يشمل بداية التعابير اللغوية غير الصحيحة نحويا (التركيز على المعنى)، ثم بعد ذلك استخدام اللغة الصحيحة في جل مستوياتها. ولكن مع استمراره في نطق الكلمات والتعابير اللغوية الغريبة، والعديمة المعنى يتوقف المحيطون به (الأبوان خاصة) عن تعزيزه؛ مما ينعكس سلبا على نمو لغته، وتطورها[14].

صفوة القول، تقوم مبادئ التقليد والمحاكاة والتعزيز (المادي والمعنوي) بدور حاسم في اكتساب/ تعلم الطفل للكلمات والتعابير اللغوية الصحيحة، ويستمر في الاستفادة منها ليشكل عادات استخدام اللغة استخداما صحيحا. والملاحظ أن المبادئ السابقة يمكن أن تصلح للتعابير والتراكيب اللغوية البسيطة، لكن يستبعد أن تفسر تعلم التراكيب الأكثر تعقيدا؛ مما دفع بالباحثين في اكتساب اللغة إلى البحث عن تفسيرات أخرى أكثر عمقا، وشمولية[15].

3-1-3-الانتقادات الموجهة للنظرية السلوكية حول اكتساب اللغة:

وجه أصحاب النظرية الفطرية نقدا لاذعا للنظرية السلوكية، واعتبروها نظرية ميكانيكية تحول الإنسان إلى آلة/ حاسوب، وتقوض إنسانيته. نظرا لإيمانها بأن السلوك الإنساني نتاج للربط بين المثير والاستجابة؛ لكن هذا الربط لا يكفي لتفسير قدرات الطفل في إنتاج اللغة واستقبالها وفهمها. كما يواجه الطفل صعوبات كبيرة في تقليد لغة المحيطين به في جل مستوياتها ومراحلها[16]، لأنه يستقبل كلاما يتضمن نسبا كبيرة من الجمل الناقصة والمنحرفة عن قواعد النظام اللغوي. وبالرغم من ذلك يستطيع إنتاج وفهم مجموعة من التعابير اللغوية التي لم يسمعها، و"يخلق في كل يوم تعابير جديدة لا علاقة لها بما يسمعه في وسطه اللغوي؛ إذ اللغة نتاج لملكة فطرية، وليس لتذكر خزان من القواعد، والبنيات اللغوية"[17].

كما انتقد الفطريون أيضا مبدأ المكافأة أو التعزيز، وأقروا بأن اللغة التي يتعرض لها الطفل في وسطه اللغوي تزخر بمعلومات مربكة ومشوشة، مثل البدايات الخاطئة، والجمل الناقصة، وهفوات اللسان...، وقليلا ما ينتبه الكبار لذلك. وحين يستعمل التعزيز يوجه نحو سلامة المعنى فقط، دون التوظيف اللغوي في مستوياته المتعددة[18]. كما أن تشبيه الإنسان بالحيوان في اكتساب اللغة غير واقعي، وغير مناسب، "لأن الهدف المهيمن على الأطفال في اكتساب اللغة هو الحصول على الاهتمام، والحب، والتواصل، وتحقيق الرغبات...، وعند الحيوان الحصول على الطعام لا غير"[19].

بنى تشومسكي"Chomsky" نظريته في اكتساب اللغة على أنقاض النظرية السلوكية ومبادئها ومفاهيمها، واقترح تصورا يضم مفاهيم مثل فقر المنبه أو التجربة، وجهاز اكتساب اللغة... ومن أهم انتقاداته للنظرية السلوكية ما يلي:

- لا يمكن تفسير اكتساب الإنسان للغة انطلاقا من تفسير سلوك الحيوان في المختبرات، لأن ثمة فرق كبير بين اللغة البشرية، وباقي وسائل الاتصال الأخرى، وخاصة وسائل الاتصال الحيواني؛ التي توصف بالقصور والنقص مقارنة باللغة البشرية.

- لا يمكن التنبؤ بالسلوك اللغوي عن طريق الربط بين المثير والاستجابة، إنهما مفهومان أجوفان غير صالحين لتفسير سلوك إنساني بالغ التعقيد (اللغة). ولا يكتسب هذا الأخير عن طريق التعلم والتدريب والممارسة فحسب، بل "هناك حقائق عقلية معقدة وراء إتقانه...، لأنه أداة تعبير، وتفكير في آن واحد"[20].

- إن فهم سكينر لطبيعة اللغة خاطئ من أساسه، وللحصول على المعلومات الحقيقية المتصلة بطبيعة اللغة، وسبل اكتسابها، يتعين عليه وضع الطفل في موقف لغوي معين، وإجباره على التقليد قصد التحكم، واكتساب اللغة التي يسمعها، وهذا العمل غير أخلاقي للغاية [21].

- فقر المنبه أو فقر التجربة، إذ ينغمس الطفل في تجربة لغوية محدودة وناقصة إلى حد كبير في جل مستوياتها، سواء تعلق الأمر بالمعجم أو بالصرف أو بالتركيب أو بالدلالة أو بالتداول...، ولا تخول له هذه التجربة اللغوية الفقيرة بناء معرفة لغوية غنية ومكتملة.

وجه أيضا لينبرغ "Lenneberg" نقدا شديدا للاتجاه السلوكي، نجمله في الجوانب الثلاثة الآتية [22]:

- يرى سكير أن المحيطين بالطفل يقتصرون على تعزيز استعمال المضمون اللغوي الصحيح فقط، دون اهتمامهم بصحة المستوى النحوي، مما يشجع الطفل على استخدام جمل أو تعابير لغوية خاطئة نحويا، وذات مضامين صحيحة. كما يمكن تعزيز اللغة بطرائق أخرى غير التدخل المباشر للوالدين وللمحيطين بالطفل، حيث يعتبر تأثير اللغة في الحصول على متطلباته، وتغدية مشاعره، وتلبية حاجياته أكثر بكثير من التعزيز المعتمد على الكلمات فقط.

- يوظف الطفل كثيرا تراكيب لغوية متعددة للتعبير عن معاني مختلفة، أي أنه يستطيع إنتاج، وفهم عدد لا محدود من الجمل التي لم يسمعها أبدا داخل بيئته اللغوية. ويعتبر هذا الجانب الإبداعي في اللغة صعب التفسير من خلال مبادئ ومفاهيم الاتجاه السلوكي.

- يكتسب معظم الأطفال اللغة بنمط واحد، بالرغم من تباين وسطهم اللغوي، والسوسيو ثقافي. ومن المنطقي أن يظهر الأطفال الذين ينتمون لأوساط ثقافية ولغوية غنية، أنماطا ومعارف مختلفة من اكتساب اللغة، ولهذا نستنتج أن التعزيز الاجتماعي ليس عاملا حاسما في اكتساب اللغة.

3- 2 – تفسيرات النظرية الفطرية لاكتساب اللغة:

3-2-1- النظرية الفطرية "The Nativist Theory": معطيات عامة

جاءت النظرية الفطرية أو العقلية كرد فعل على النظرية السلوكية التي يعتقد أصحابها أن الطفل يولد وذهنه صفحة بيضاء، وتقوم البيئة بدور أساسي في تعلم جل السلوكيات الإنسانية، بما فيها السلوك اللغوي. بينما يرى الفطريون

أن كل إنسان يمتلك قدرة فطرية تسمح له باكتساب وتعلم اللغات البشرية جميعها في كل زمان ومكان. وليست اللغة من وجهة نظرهم سلوكا يماثل السلوكيات الأخرى (النظرية السلوكية)[23]، بل هي ملكة واحدة من ملكات العقل، وسلوك معقد يخفي وراءه معرفة ضمنية بقواعد مركبة خاصة بالجنس البشري فقط. ويصعب تفسيره بالاقتصار على فرضيات ومبادئ ومفاهيم النظرية السلوكية (المحاكاة، والتقليد، والتعزيز، والتكرار...)[24].

يستطيع طفل ثلاث سنوات -من وجهة نظر الفطريين- خلق الجمل التي يحتاجها في سياقات مختلفة، وغالبا لا تشبه جمل الكبار؛ وبالرغم من استقباله للغة مشوشة وناقصة داخل بيئته اللغوية. ولهذا اعترض تشومسكي على أن يكون التقليد هو العملية المركزية في اكتساب اللغة، وأن عقل الطفل ليس صفحة بيضاء تملأ بمحاكاة لغة يسمعها[25]. بل هو المخلوق الوحيد المبرمج فطريا لاكتساب وتعلم اللغة؛ مما يسمح له باكتسابها، وإنتاجها، واستكشاف قواعدها العميقة في ضوء عينات اللغة الطبيعية التي يتعرض لها [26].

ثم عندما يبلغ الطفل الخامسة من عمره يتقن لغة عشيرته تماما، ويبقى الجانب المدهش في اكتسابه للغة، هو قدرته على صياغة نظام لغوي سليم اعتمادا على مجموعة من المفردات والتعابير الناقصة والعشوائية. ولما كان يستوعب هذا النظام المعقد في فترة وجيزة، "فيعتقد بأن جهازه اللغوي موروث، ويسهم إسهاما كبيرا في بلوغ القواعد سواء كان اكتساب اللغة حسب هذه النظرية أو تلك"[27].

خلاصة القول، يتوافر الطفل على قدرة فطرية تمكنه من اكتساب اللغة، وضبط قواعدها، وتيسر له نطق تعابير لغوية جديدة لم ينطق بها أحد أمامه. كما

يأخذ مادته اللغوية من لغة كلية محددة (النحو الكلي)، مما يساعده على تكوين فرضيات مبنية على ما يسمعه في بيئته اللغوية (البرامترات).

3-2-2-جهاز اكتساب اللغة، ودوره في الاكتساب اللغوي:

تعتبر أفكار تشومسكي"Chomsky" حول اكتساب اللغة ثورة معرفية في اللسانيات، وفي السيكولسانيات، وفي البيولوجيا العصبية.... وقد حظيت أفكاره بكثير من الدعم من قبل الباحثين خلال الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي أمثال Lenneberg"، وكراشن "Krashen". حيث افترض أن الأطفال مبرمجون بيولوجيا لاكتساب أي لغة منذ ولادتهم، ومع اختلاف بيئاتهم وثقافاتهم. ويطورون الكفاية اللغوية في المرحلة العمرية نفسها وبالمعدل نفسه، وبالرغم من توافرهم سوى على القليل من معطيات التجربة اللغوية؛ "فإذا تركنا الحالات المرضية الخطيرة جانبا، تكون هذه الحالات متشابهة للغاية عبر النوع، فهناك سن فاصل لاكتساب اللغة"[28].

يعود الفضل في اكتساب اللغة، ونموها وفق هذا الاتجاه إلى جهاز فطري فريد من نوعه، ومشترك بين البشر جميعهم، ويطلق عليه جهاز اكتساب اللغة "Language Acquisition Device". ويتكون هذا الجهاز (الصندوق الأسود) من قالب يضم مبادئ كلية مشتركة بين البشر (النحو الكلي)[29]. وتعمل تلك المبادئ بشكل آلي، ومربوطة بعلبة مفاتيح /الخيارات التي تقررها التجربة أو البرامترات؛ والتي تحدد مجموعة اللغات الإنسانية الممكنة، أي ثمة لغة إنسانية واحدة فحسب. وهي "نتيجة لتفاعل عاملين: عامل حالة البداية، وعامل سيرورة الخبرة، ويحدد الأولى جهاز اكتساب اللغة، الذي يأخذ الخبرة كمدخل، وينتج اللغة كمخرجات مبنية داخليا في العقل/ الدماغ"[30].

ويساعد جهاز اكتساب اللغة الطفل على فهم التراكيب والعلاقات الأساسية بين الكلمات، واكتساب قواعد بالغة التعقيد بدقة فائقة، كما يمنعه من اتباع كل الافتراضات الخاطئة عن كيفية اشتغالها ويسمح له بالاستيعاب السريع للتعابير اللغوية التي تناسب لغته الأم واستخدامها بمرونة وإبداع، وبناء حدسه اللغوي. وليس مجرد استخلاص الأنماط اللغوية، وتعميمها[31]. كما يمكن الطفل من فحص البنى اللغوية التي يسمعها، وتعديلها باستمرار، وتستمر هذه العملية إلى أن تتماثل لغته مع لغة الكبار[32].

خلاصة القول، يشكل جهاز اكتساب اللغة خاصية بيولوجية بشرية، وهو بمثابة "عضو لغة"، بالمعنى الذي يتحدث به العلماء عن الجهاز العصبي أو جهاز المناعة؛ "إنه نظام ثانوي ذو بنية أكثر تعقيدا"[33]. وبناء عليه، فإن اللغة تنمو في ذهن الطفل كما تنمو فيه سائر وظائفه البيولوجية، على سبيل المثال سوف يتعلم الطفل المشي مادام توافر له الغذاء المناسب؛ ولهذا تغدو دراسة اللغة فرعا من دراسة علم الأحياء التطوري[34].

3-2-3-النظرية الفطرية، ودور البيئة في الاكتساب اللغوي:

يقتصر دور البيئة اللغوية للطفل -من وجهة نظر الفطريين -على قدح شرارة الاكتساب وتحفيزه، أي لا يؤدي الاستعداد البيولوجي تلقائيا إلى اكتساب اللغة؛ "إذ لابد له من النضج النفسي، والتعرض للغة قصد تطويرها، وتنميتها."[35] والواقع أن هذا التطوير يؤدي إلى الاكتشاف التدريجي للقواعد الخاصة التي تسمح بتحويل البنية اللغوية العميقة إلى بنيات لغوية سطحية، لغة الوسط الذي ولد فيه الطفل. ولو تعلق الأمر بطفل يعاني من متلازمة داون، فإن اكتساب اللغة

يحدث وفق الخطوات نفسها، ولكن بمعدل بطيء[36]. ومن هنا نخلص إلى أن كل طفل سوي بإمكانه اكتساب أي لغة، ودون القيام بأي مجهود يذكر شريطة التعرض الشفاف للغة محيطه؛ "لأن عمل الطفل عمل ذاتي خلاق ينبغي دراسته من حيث هو خاصية إنسانية"[37]. إضافة إلى توقف نجاح اكتسابه على مدى تفاعله مع بيئته اللغوية وعلى الظروف المحيطة به، وعلى محفزاته، وخصائصه، وقدراته...

يكتسب الطفل اللغة بشكل سريع خلال السنوات الخمس الأولى، ويتفق أغلب الباحثين على أن مرحلة الطفولة المبكرة مهمة جدا في الاكتساب اللغوي. ويعتبر تشومسكي أول من تناول ذلك في نظريته التوليدية التحويلية، واعتبر تلك المرحلة أساسية في اكتساب اللغة. وإذا واجه الطفل مشاكل خلالها، لأي سبب من الأسباب، فإنه من الصعب عليه اكتسابها لاحقا؛ لأن هذه القدرة المخلوقة تأخذ بالضمور [38].

وقد ناقش هذه الفرضية بعمق اللساني كراشن "Krashen "، وأطلق عليها مفهوم الفترة الحرجة. ويعتقد أن الدماغ في مرحلة الطفولة يكتسب اللغة بشكل مرن وسهل، مقارنة بالمراحل العمرية اللاحقة. لأن "الآليات العصبية التي تدعم اكتساب اللغة تتغير أو تضمر، أو يحدث الأمران أثناء تقدم المرء بالعمر"Birdsong" [39]. وفي هذا الصدد، قدمت مجموعة من الدراسات براهين لمقارنة شفاء الأطفال، وشفاء البالغين من الحبسة "Aphasie"، وسهولة اكتساب اللغة في مرحلة الطفولة، ودراسة الأطفال الذين تعرضوا للغة بشكل محدود[40]. وخير دليل على ذلك، حالات لأطفال لم يتعرضوا للغة لأسباب معينة، ثم أعيدوا إلى الحياة الاجتماعية (البيئة اللغوية الطبيعية)، لكنهم فشلوا في اكتشاف واكتساب الملكة الحقيقية للغة بيئتهم الحية[41] . ومن بين هذه الحالات، حالة الطفل فيكتور"Victor" الذي عثر عليه في غابة أفيرون الفرنسية من قبل الصيادين،

وتكفل به مدير معهد الصم والبكم في باريس، وعمل معه خمس سنوات؛ لكنه لم ينجح في تعليمه اللغة بالشكل المطلوب. والشأن ذاته شأن الأطفال الذين لم يسعفهم الحظ التفاعل مع بيئة لغوية، مما انعكس سلبا على اكتساب لغتهم الأم. لأن "الفطرة غير كافية لاكتساب اللغة، ما لم تكن هناك بيئة تتحدث اللغة وتستعملها، بحيث يحدث شكل من التلاقي بين الفطري، واللغة الأم المستعملة في البيئة"[42].

يتبين من خلال ما سبق أن الاتجاه الفطري بنى تصوراته وأفكاره على أنقاض النظرية السلوكية، حيث انتقد تفسيراتها وتصوراتها حول موضوع اكتساب اللغة، ثم اقترح أفكارا جديدة، تنظر إلى اللغة باعتبارها كيانا معقدا يكتسب في وقت وجيز، وبقليل من الجهد، ويتحكم فيه عنصران أساسيان هما: التهيؤ "Predisposition" ذو الأساس الأحيائي لاكتساب اللغة من جانب، والتعرض للغة ومزاولتها في المحيط من جانب آخر.

3-2-4-الانتقادات الموجهة للنظرية الفطرية حول اكتساب اللغة:

انتقد بعض الباحثين مثل Bruner وSnow وNewport النظرية الفطرية، لأن أفكارها وتصوراتها لم تنجح في تقديم تفسير قوي وشامل، وموثوق به علميا لموضوع اكتساب اللغة. ويظهر هذا الأمر في البراهين التي اعتمدت عليها لتوضيح قوانين تطور نظام القواعد اللغوية عند الطفل [43]. كما أنها لم تهتم بشكل كبير بدور التجربة والجوانب الاجتماعية في الاكتساب اللغوي، والمفاهيم المتصلة به كالتحفيز، والتعزيز.... لكن هذا الاتجاه لم يرفض التجربة تماما، بل رفض اعتبارها المصدر الوحيد للمعرفة الإنسانية (المعرفة اللغوية). ومن الانتقادات الموجهة له

أيضا، تركيزه المبالغ فيه على الحالة النهائية لاكتساب اللغة، مقارنة بدراسة خصائص نموها وتطورها. ثم اختلاف معظم اللسانين الفطريين في التحديد الدقيق لما هو ذو أساس أحيائي من الجوانب اللغوية والمعرفية، ومن ناحية الدور الذي تؤديه الممارسة في الاكتساب اللغوي [44].

ويعتبر الرأي التوفيقي من الآراء التي تبناها أغلب الباحثين في هذا الموضوع، ويسمى بالاتجاه التفاعلي البنائي بأصنافه المختلفة "Piaget" و"Vygotsky".... وينظر إلى اكتساب اللغة بأنه عملية تبادل، وتفاعل بين خبرة الطفل واستعداده العصبي الفطري. ومن هنا نستنتج الدور الكبير للبيئة اللغوية في اكتساب اللغة، أي "أن العوامل الوراثية، والعوامل البيئية وجهان لعملة واحدة"[45].

4-خاتمة:

يعتبر موضوع اكتساب اللغة من المواضيع التي استأثرت بنقاش وجدال حادين بين نظريات منتمية لحقول معرفية متعددة، ونخص بالذكر حقل علم النفس، وحقل علم اللغة.... ومن النظريات التي قدمت أفكارا وتفسيرات عميقة، نجد النظرية السلوكية والنظرية الفطرية. حيث اعتبرت الأولى اللغة سلوكا يماثل السلوكيات الإنسانية جميعها، ويكتسب عن طريق التطبيق الفعلي لمبادئ التقليد والمحاكاة، والتعزيز والتحفيز.... وأن البيئة اللغوية مصدر المعارف الإنسانية، بما فيها المعرفة اللغوية. أما الثانية، فاعتبرت اللغة نشاطا معقدا، ويصعب تفسير اكتسابه وفق الأفكار، والمفاهيم، والمبادئ السطحية للنظرية السلوكية. وأكدت أن اللغة خاصية بيولوجية إنسانية، أي أن النوع الإنساني مزود بمعرفة فطرية، تعرف بجهاز اكتساب اللغة "LAD". كما رفضت أن تكون التجربة مصدرا أساسيا للمعرفة اللغوية، ووصفت الطفل بالنشيط في اكتسابه اللغوي. لكن البحث في هذا

الموضوع يبقى مفتوحا على آراء، وأفكار نظريات مختلفة، ومنها: النظرية التفاعلية، والنظرية الاجتماعية، والنظرية العصبية....

5-قائمة الاحالات:

1- ابن جني، أبو الفتح عثمان. الخصائص. تحقيق محمد علي النجار، الجزء الأول، دار الكتب المدرسية، الطبعة الثانية، مصر، 1957، ص 33

2- فيرناندیز، إيفام وكيرنز، هيلين سميث. أسس اللسانيات النفسية. ترجمة عقيل بن حامد الزماي الشمري، جداول للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، لبنان، 2018، ص 20

3- Bussmann, H. Routledge Dictionary of Language and Linguistics. Translated and edited by G, Trauth and K, Kazzi, London, 1996, p 627.

4- الموسى، أنور عبد الحميد. أبجديات اللغة وعلم الأصوات واللسانيات. دار النهضة العربية، الطبعة الأولى، 2016، لبنان، ص ص 11- 13.

5- تشومسكي، نعوم. آفاق جديدة في دراسة اللغة والعقل. ترجمة عدنان حسن، دار الحوار للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، سوريا، 2009، ص 35.

6- فيرناندیز، وكيرنز، مرجع سابق، ص 19.

7- سليمان أحمد، عطية. اللسانيات العصبية: اللغة في الدماغ (رمزية، عصبية، عرفانية)، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، مصر، 2019، ص ص 39- 40.

8- الشايب، فوزي حسن. محاضرات في اللسانيات. منشورات وزارة الثقافة، الطبعة الأولى، عمان، 1999، ص 342.

9- نبيل، عبد الهادي والدراويش، حسين وصوالحة، محمد. تطور اللغة عند الطفل. الأهلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، عمان، 2007، ص 94.

10- قحطان، أحمد الظاهر. اضطرابات اللغة والكلام. دار وائل للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، عمان، 2010، ص 56.

11- أحمد بدران، عبد المنعم. التحصيل اللغوي وطرق تنميته. العلم والإيمان للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، مصر، 2008، ص 12.

12- محمد سلامة، سهير. علم النفس اللغة. مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2006، ص 76.

13- Hurford, J, R. The Origine of Language. Oxford University Press, Impression 1, 2014, p 36.

14- كلاين، ستيفن. التعلم: مبادئه وتطبيقاته. الجزء الأول، ترجمة رباب حسنى هاشم، مكتبة الملك فهد الوطنية للنشر، الرياض، 2003، ص ص 564- 565.

15- لايتباون، باتسي وسبادا، نينا. كيف نتعلم اللغات؟ ترجمة علي أحمد شعبان، منشورات المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى، القاهرة، 2014، ص 42.

16- Hurford, J, R. The Origine of Language. Oxford University Press, Impression 1, 2014, p 35.

17- Han, W. Universal Grammar and The Initial State of Second Language Learning. Springer Nature Singapor, Pte Ltd, 2020, p 2. http://doi.org/10.1007/978-981-15-2452-3

18- فيرناندیز، إيفام وكيرنز، هيلين سميث. أسس اللسانيات النفسية. ترجمة عقيل بن حامد الزماي الشمري، جداول للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، لبنان، 2018، ص 154.

19- Hurford, J, R. The Origine of Language. Oxford University Press, Impression 1, 2014, p 36.

20- الشايب، فوزي حسن. محاضرات في اللسانيات. منشورات وزارة الثقافة، الطبعة الأولى، عمان، 1999، ص 340.

21- Adger, D. Language Unlimited. Oxford University Press, 2019, p 60.

22- كلاين، ستيفن. التعلم: مبادئه وتطبيقاته. الجزء الأول، ترجمة رباب حسنى هاشم، مكتبة الملك فهد الوطنية للنشر، الرياض، 2003، ص ص 567- 568.

23- Adger, Ibid, p 132.

24- الشايب، مرجع سابق، ص 379.

25- فيرناندیز، وكيرنز، مرجع سابق، ص 119.

26- أحمد البهاص، سيد أحمد. سيكولوجيا اللغة واضطرابات التواصل. النهضة المصرية، القاهرة، 2007، ص 105.

27- نبيل، عبد الهادي والدراويش، حسين وصوالحة، محمد. تطور اللغة عند الطفل. الأهلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، عمان، 2007، ص 100.

28- Han, W. Universal Grammar and The Initial State of Second Language Learning. Springer Nature Singapor, Pte Ltd, 2020, p 8. http://doi.org/10.1007/978-981-15-2452-3

29- قحطان، أحمد الظاهر. اضطرابات اللغة والكلام. دار وائل للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، عمان، 2010، ص 59.

30- تشومسكي، نعوم. آفاق جديدة في دراسة اللغة والعقل. ترجمة عدنان حسن، دار الحوار للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، سوريا، 2009، 42.

31- Hurford, J, R. The Origine of Language. Oxford University Press, Impression 1, 2014, p 3

32- أحمد بدران، عبد المنعم. التحصيل اللغوي وطرق تنميته. العلم والإيمان للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، مصر، 2008، ص 13.

33- تشومسكي، مرجع سابق، ص 35.

34- جنكينس، بيل. اللسانيات الاحيائية: استكشاف أحيائية اللغة. ترجمة عبد الرحمان بن حمد المنصور، دار جامعة الملك سعود للنشر، د.ط، الرياض، 2016، ص 157.

35- فيرناندیز، إيفام وكيرنز، هيلين سميث. أسس اللسانيات النفسية. ترجمة عقيل بن حامد الزماي الشمري، جداول للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، لبنان، 2018، ص 143.

36- بوتون، شارل. اللسانيات التطبيقية. ترجمة قاسم المقداد ومحمد رياض المصري، دار الوسيم للخدمات الطباعية، د.ت، دمشق، ص 23.

37- Adger, D. Language Unlimited. Oxford University Press, 2019, p 133.

38- قحطان، أحمد الظاهر. اضطرابات اللغة والكلام. دار وائل للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، عمان، 2010، ص 43.

39- فيرناندیز، إيفام وكيرنز، هيلين سميث. أسس اللسانيات النفسية. ترجمة عقيل بن حامد الزماي الشمري، جداول للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، لبنان، 2018، ص 193.

40- جنكينس، بيل. اللسانيات الاحيائية: استكشاف أحيائية اللغة. ترجمة عبد الرحمان بن حمد المنصور، دار جامعة الملك سعود للنشر، د.ط، الرياض، 2016، ص 251.

41- بوتون، شارل. اللسانيات التطبيقية. ترجمة قاسم المقداد ومحمد رياض المصري، دار الوسيم للخدمات الطباعية، د.ت، دمشق، ص 12.

42- قحطان، أحمد الظاهر. اضطرابات اللغة والكلام. دار وائل للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، عمان، 2010، ص 60.

43- بوتون، مرجع سابق، ص 22.

44- فيرناندیز، إيفام وكيرنز، هيلين سميث. أسس اللسانيات النفسية. ترجمة عقيل بن حامد الزماي الشمري، جداول للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، لبنان، 2018، ص 148.

45- أحمد بدران، عبد المنعم. التحصيل اللغوي وطرق تنميته. العلم والإيمان للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، مصر، 2008، ص 19.